جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

السرجاني، راغب

الفتنة الطائفية في مصر تأليف/ راغب السرجاني

ط١، القاهرة، أقلام للنشر والتوزيع والترجمة، ، ٢٠١١

٨٠ ص، ١٢ سم تدمك: ٩ -٠٢ -٥١٣٧ -٩٧٧ -٩٧٨

١ - الصراع الطائفي ٢ - التعصب الديني

العنوان ٣٠١,٦٣٥

رقم الإيداع: ٢٠١١/١٠٩٤٠

للنشر والتوزيع والترجمة (ش.م.م)

www.aqlamonline.net

مقدمة

لا ينكر عاقل أن مصر الآن تعيش أجواء فتنة حقيقية بين المسلمين والنصارى..

ولعلَّ أكثر ما يُثير مشاعر القلق في نفسي وفي نفوس الكثيرين من الغيورين على مستقبل هذا الوطن هو أن الفتنة هذه المرَّة تطلُّ علينا من جانب الدين والعقيدة، وما أدراك ما العقيدة ومكانتها؟! ليس في قلوب المسلمين فقط؛ بل وفي قلوب البشرية كلها.

فالعقيدة هي المشترك الأسمى بين الناس وأهم ما يتميَّز به الإنسان، وأغلى ما يمتلك، وأفضل شيء يُعطيه «هوية» معيَّنة، وهي أقوى رباط بين اثنين أو بين شعبين، فيشعر أبناء العقيدة الواحدة بالانتماء إلى أبناء عقيدتهم الذين عاشوا قبلهم بألف عام، ويشعرون بالانتماء لأبناء عقيدتهم الذين ينتسبون إلى

أعراق مختلفة، ويشعرون كذلك بالانتماء لأبناء عقيدتهم الذين يعيشون في أرض بعيدة، أو في ظروف اقتصادية مختلفة تمام الاختلاف.. إنها الرابط الأسمى الذي لا يعلوه رابط، خاصة في الأوساط التي تشهد صحوة دينية، وعودة إلى الأصول.

يلخص هذه الأهمية موقف مصعب بن عمير[1] ﷺ عندما مرَّ يوم بدر بأخيه أبي عزيز بن عمير بن هاشم[2] وهو أسير لأحد الأنصار، فقال: شُدَّ يديك به؛ فإن أُمَّه ذات متاع لعلَّها أن تفتديه منك. فقال أبو عزيز لأخيه مصعب: يا أخي هذه

---

(١) مصعب بن عمير: هو مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف العبدري القرشي، من فضلاء الصحابة وخيارهم ومن السابقين إلى الإسلام، وقد امتحن في إسلامه وصبر، هاجر إلى الحبشة، وشهد بدرًا، وبعثه رسول الله سفيرًا إلى المدينة قبل الهجرة بعد العقبة الثانية يقرئهم القرآن ويعلمهم الدين. استشهد في غزوة أحد ٣هـ= ٦٢٥م. انظر: ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة ٦/ ١٣٢، وابن عبد البر: الاستيعاب ٤/ ١٤٧٣.

(٢) أبو عزيز بن عمير: أبو عزيز بن عمير بن هاشم بن عبد مناف العبدري القرشي، اسمه زرارة، له صحبة وسماع من النبي ﷺ، واتفق أهل المغازي على أنه أُسِرَ يوم بدر مع مَنْ أُسِرَ من المشركين، وذُكر عنه قوله: كنت في الأسارى يوم بدر، فسمعت رسول الله ﷺ يقول: «**استوصوا بالأسارى خيرًا**». انظر: ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة ٧/ ٢٧٤، وابن عبد البر: الاستيعاب ٤/ ١٧١٤، ١٧١٥.

وصاتك بي؟! فقال له مصعب: إنه أخي دونك [1].

إن ما قاله مصعب بن عمير ﷺ في هذه القصة ليس غريبًا ولا عجيبًا، فمن أجل العقيدة يترك الناس أهلهم وعشائرهم، ومن أجلها يتركون ديارهم وأوطانهم، ومن أجلها يدفعون أموالهم وثرواتهم، فلا غرو أن تكون أسمى ما يمتلك الإنسان؛ ولذلك أطلقتُ على هذه العقيدة اسم «المشترك الأسمى»[2].

العقيدة هي أصعب ما يمكن أن يُغَيِّره الإنسان؛ فقد يُغَيِّر الإنسان عمله أو بلده أو حتى شكله، لكن لا يقبل بتغيير عقيدته إلاَّ في ظروف ضيقة جدًّا، وعادة ما يكون هذا بعد تغيير كامل في قناعات الإنسان.

إنه من الثابت حقًّا أنَّ تغيير جزئية في العقيدة أمر صعب للغاية، بل المفترض أنه مستحيل.. فأصحاب الأديان -سواء

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية ٣/ ١٩٥، والطبري: تاريخ الرسل والملوك، دار التراث - بيروت، ط٢: ١٣٨٧هـ، ٢/ ٣٩، وابن كثير: السيرة النبوية ٢/ ٤٧٥.

(٢) للمزيد انظر (فصل المشترك الأسمى) في كتابنا: المشترك الإنساني..نظرية جديدة للتقارب بين الشعوب، مؤسسة اقرأ - مصر، ط١: ١٤٣٢هـ = ٢٠١٠م.

السماوية أو الوضعية- يعتقدون أن هذه العقائد والتشريعات هي من عند الإله، وبالتالي ليس هناك مجال لتغييرها، ولا نملك ذلك، ولا نقدر عليه؛ ومن هنا فليس هناك معنى أن نسعى إلى فكرة الالتقاء في منتصف الطريق، وليس هناك معنى لما يُسَمَّى بوحدة الأديان، أو دمج الأديان؛ لأن هذا يعني تكوين عقيدة جديدة لن يرضى عنها الجميع..

فما الحلُّ؟!

هل أصبح الصدام حتميًّا هكذا؟!

أبدًا..

إن الحلَّ الأمثل هو أن «يقنع» كل البشر أن العنف والجبر لن يُغيِّر من عقيدة إنسان، بل سيقود إلى دمار وخراب، ومن هنا جاء قول الله ﷻ في القرآن الكريم: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وجاء كذلك قوله ﷻ: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]، والذي يُعلن عن اعتناق عقيدة معينة تحت سيف القهر، ونتيجة ضغوط الإكراه ليس في الحقيقة معتنقًا لهذه العقيدة الإكراهية، إنما يعتقد عقيدته الأصلية في السرِّ، بل

لعلَّه ازداد تمسُّكًا بها، وسينقلب لا محالة إلى قنبلة موقوتة تنتظر فرصة الانفجار.

وقد يظن أحد البسطاء أن هذا الاختلاف يمكن حسمه بالحرب بهدف توحيد البشر على عقيدة واحدة، لا يا سيدي، الأمر ليس بهذه البساطة بل قد يُؤَدِّي هذا الأمر إلى فناء العالم بكامله.. نعم؛ فحروب العقيدة هي أشرس حروب الدنيا، وأشدها دموية؛ لأن الإنسان ليس عنده مانع من أن يفقد حياته في سبيل عقيدته، بل إن الموت في سبيل العقيدة غاية عند كثير من أتباع الديانات؛ وبالتالي فموت بعض الأفراد ليس نهاية الحرب، إنما الحرب لا تتوقف إلاَّ بالفناء!

ولذلك على العقلاء في العالم تجنُّب الحروب العقائدية قدر ما يستطيعون، فلا يُكْرِه أحدٌ أحدًا على تغيير دينه، أو تبديل عقيدته؛ لأن الطرف الذي أُكْرِه سيكون له كامل الحقِّ في الزَّوْدِ عن عقيدته في هذه الحالة، ولن تتوقف الحرب أبدًا[1].

(١) للمزيد انظر (فصل المشترك الأسمى) في كتابنا: المشترك الإنساني..نظرية جديدة للتقارب بين الشعوب.

وللحق فقد فطن إلى هذه الحقيقة الحكماء من المسلمين والنصارى[1] على السواء فعملوا سويًّا على التهدئة قدر المستطاع، ونزع فتيل الأزمات ذات البعد الطائفي في كثير من الأحيان قبل انفجارها؛ تقديرًا منهم لخطورة تحوُّل الأمر إلى حرب عقائدية، ويقينًا منهم أن اشتعال الفتنة الطائفية في مصر ستكون بمثابة «الحالقة» التي ستقضي على أي بادرة أمل في تحقيق نهضة حقيقية في هذا البلد.

لكن يأبى أعداء هذا الوطن -في الداخل والخارج- أن يتركوه ينعم بحرية أو أمن أو استقرار، فتراهم يبذلون كامل جهدهم لتعويق نهضته بشتى السُّبل، ولعلَّ أخطرها تذكيتهم

(١) النصارى المراد بهم: أتباع عيسى عليه السلام؛ قيل: سُمُّوا نصارى نسبة إلى البلد: الناصرة في فلسطين، أو من قوله تعالى: ﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللهِ﴾ [آل عمران: ٥٢]، ويقول آخرون: لقوله تعالى: ﴿مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللهِ﴾ [آل عمران: ٥٢]، فاسمهم في الكتاب والسُّنَّة: النصارى. انظر: تفسير مقاتل بن سليمان، تحقيق: عبد الله محمود شحاته، دار إحياء التراث - بيروت، ط١: ١٤٢٣هـ، ١/ ٤٦٢، والطبري: جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط١: ١٤٢٠هـ=٢٠٠٠م، ٢/ ١٤٥، وصالح الفوزان: إعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد، مؤسسة الرسالة، ط٣: ١٤٢٣هـ= ٢٠٠٢م، ١/ ٢٧١، ٢/ ١٧١.

لنار الفتنة حتى تحرقنا جميعًا.

وفي رأيي أن تعريف الفتنة في حالتنا المصرية هي أزمة أو معركة أو صدام لا يستطيع المحللون والمراقبون لأحداثها التحديد وبوضوح الحق مع أي طرف من أطراف النزاع، كما أن الفتنة قد تكون مدبَّرة بفعل فاعل، أو تكون بشكل عفوي دون إعداد مسبق، وغالبًا ما تنشأ الفتنة في أجواء التوتُّر والاضطراب، كما يُشَكِّل نقص المعلومات أحد أهم العوامل الرئيسية لتأجيج الفتنة.

كما أننا يقينًا لن نستطيع فهم أبعاد قضية الفتنة الطائفية في مصر إلا إذا عدنا إلى جذورها، وتعرَّفنا على قصة العلاقة بين المسلمين والنصارى في مصر منذ بدايتها..

***

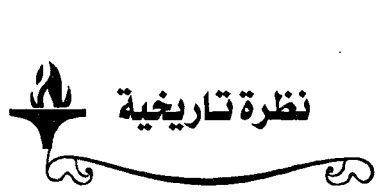

عندما اشتدَّ القتال بين المسلمين والدولة الرومانية بقيادة «الأرطبون» الذي كان من أدهى قواد الروم، وقال عنه عمر بن الخطاب: قد رمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب[1]. يقصد عمرو بن العاص، وبالفعل زحف عمرو بن العاص نحو مصر حينما علم بسفره إلى مصر حتى وصل إلى حصن بلبيس، فوجد قوة كبيرة من الروم هناك ومعهم قائدهم أرطبون، وحاصروا الحصن لمدة شهر حتى فتح الله على المسلمين وقتل أرطبون[2].

وتحققت بشارة النبي محمد ﷺ بفتح مصر كما ورد في

(١) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ٣/ ٦٠٥، وابن الأثير: الكامل في التاريخ، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان، ط١: ١٤١٧هـ= ١٩٩٧م، ٢/ ٣٢٨، وابن كثير: البداية والنهاية، تحقيق: علي شيري، دار إحياء التراث العربي، ط١: ١٤٠٨هـ=١٩٨٨م، ٧/ ٦٣.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ٧/ ١١٢، وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب، مصر، ١/ ٢٤.

صحيح مسلم عن عبد الرحمن بن شماسة المهريِّ، قال: سمعت أبا ذرٍّ يقول: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّكُمْ سَتَفْتَحُونَ أَرْضًا يُذْكَرُ فِيهَا الْقِيرَاطُ فَاسْتَوْصُوا بِأَهْلِهَا خَيْرًا فَإِنَّ لَهُمْ ذِمَّةً وَرَحِمًا...**»[1].

لاقى نصارى مصر القوات الإسلامية التي طاردت قوات الاحتلال الروماني بأرض مصر والشمال الإفريقي بمشاعر الارتياح لنجدتهم من الاضطهاد الروماني، الذي عانوا ويلاته طوال ستة قرون كاملة!

وكتب عمرو بن العاص كتابًا للمصريين يُوَضِّح فيه مبادئ الإسلام السامية:

«بسم الله الرحمن الرحيم.. هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان لأنفسهم وملتهم وأموالهم، وكنائسهم وصليبهم، وبَرِّهم وبحرهم، لا يدخل عليهم شيء من ذلك ولا ينتقص... ومَنْ دخل في صلحهم من الروم والنوب -أهل النوبة-

(١) مسلم: كتاب فضائل الصحابة ﷺ، باب وصية النبي ﷺ بأهل مصر، (٢٥٤٣)، صحيح مسلم: تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ومسند أحمد (٢١٥٦٠)، مؤسسة قرطبة - القاهرة.

فله مثل ما لهم، وعليه مثل ما عليهم، ومَنْ أبى واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه، على ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله، وذمة الخليفة أمير المؤمنين، وذمة المؤمنين...»[1].

لقد كان من أهمِّ عوامل نجاح الفتح الإسلامي هو دور المخلِّص الذي لعبه الفاتحون بالنسبة للنصارى، ويكفي أن يذكر التاريخ أن بطريرك النصارى (بنيامين) الهارب في الصحراء عشر سنوات كاملة، لم يَعُدْ إلى كرسي البطريركية ويأمن على نفسه ويستقرّ إلاَّ بعد الفتح الإسلامي، وبسيوف المسلمين وفي حمايتهم، بل لقد وضع هذا الفتح نهايةً للمذابح والاضطهادات التي شَنَّتْهَا أوربا على نصارى مصر، فيما سُمِّيَ بعصر الشهداء[2]!

وفي مقابل الاضطهاد الروماني وجد المصريون من المسلمين الفاتحين الأخلاق الكريمة والعدالة والكرامة الإنسانية والتسامح، فلم يجبروهم على ترك النصرانية والدخول في الإسلام، بل اختار أهل

(١) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٤/ ١٠٩، وابن كثير: البداية والنهاية ٧/ ١١٢، ١١٣، وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١/ ٢٤، ٢٥.

(٢) محمد جلال كشك: ودخلت الخيل الأزهر، الزهراء للإعلام العربي - القاهرة، ط٣: ١٤١٠هـ=١٩٩٠م، ص٣٢١، ٣٢٢.

مصر الإسلام طوعًا، والدليل على ذلك أن تحوُّل أغلبية المصريين إلى الإسلام استغرق عقودًا طويلة؛ فلقد كان تعداد سكانها من النصارى واليهود عند الفتح الإسلامي في عام (٢٠هـ=٦٤١م) حوالي ٢,٥ مليون مصري، وفي نهاية عهد معاوية بن أبي سفيان -أي بعد نحو نصف قرن من الفتح الإسلامي- كان قرابة نصف المصريين لا يزالون على نصرانيتهم؛ حيث كان عددهم يزيد عن مليون مصري، وفى نهاية عهد هارون الرشيد عام (١٩٣هـ=٨٠٩م) -أي بعد مرور قرابة القرنين من الزمان على تاريخ الفتح- كان تعداد غير المسلمين بمصر نحو ٦٥٠,٠٠٠ نسمة، علمًا بأن تعداد المصريين في ذلك الوقت لم يزد كثيرًا عن ٢,٥ مليون نسمة، أي نحو ربع السكان ظلَّ على ديانته[1].

وبمرور الوقت تعايش نصارى مصر مع المسلمين الفاتحين

---

(١) فيليب فارج، ويوسف كرباج: المسيحيون واليهود في التاريخ الإسلامي العربي والتركي، ترجمة: بشير السباعي، سينا للنشر، ط١: ١٩٩٤م، ص٤٦-٥٢، ولقد كان انتشار الإسلام خارج مصر أبطأ.. ولو أخذنا مصر وسوريا وفارس معًا، فسنجد أن انتشار الإسلام فيها بعد قرن من الفتح لم يتجاوز ١٠٪ من السكان. عن محاضرة الأستاذ الدكتور/ محمد عمارة، بعنوان: الأقليات غير المسلمة في العالم الإسلامي، ألقاها ضمن فعاليات مؤتمر: حقيقة الإسلام في عالم متغير.

في جوٍّ سادته روح المودَّة، بعدما تدعمت أواصر الثقة فيما بينهما وصارا يشكلان نسيجًا واحدًا فيما نسميه الآن المجتمع المصري بسماته الأصيلة والمتميزة؛ عاش المسلمون والنصارى معًا تحت مظلة الحكم الإسلامي معاني العدالة والمساواة، كما قاسوا معًا مرارة الظلم والاستبداد دون تفرقة؛ مثلما حدث في عهد الحاكم بأمر الله الشيعي الإسماعيلي -هذا المجنون- زعيم الدولة العبيدية الملقبة «بالفاطمية»، الذي تجرَّع المصريون في عهده سوء العذاب والاضطهاد دون أدنى تفرقة[1].

لم يُعَكِّر صفو العلاقة بين المسلمين والنصارى في مصر على طوال تاريخهم القديم، ولم نسمع في هذه الفترة بمصطلح الفتنة الطائفية، الذي يتكرَّر على أسماعنا يوميًّا في أيامنا الحالية، وإن كانت بعض مظاهره تجلَّت في إحدى المراحل الحاسمة من تاريخنا الإسلامي؛ وذلك بالتحديد في فترة الهجمة التترية على العالم الإسلامي؛ عندما قام «هولاكو» الماكر بتعيين قائد يُعَدُّ

(١) انظر للمؤلف: قصة الحروب الصليبية.. من البداية إلى عهد عماد الدين زنكي، مؤسسة اقرأ - مصر، ط١: ١٤٢٩هـ=٢٠٠٨م، ص١٨، ٣٣.

أفضل قواده اسمه «كتبغا نوين» على رأس جيوشه، وكان -فوق إمكانياته القيادية والمهارية- نصرانيًّا، وبذلك يستطيع التعامل مع الأعداد الكبيرة النصرانية المشاركة في الجيش، وذلك إلى جانب محاولته الخبيثة للتأثير على النصارى المقيمين في الدول الإسلامية التي ينوي هولاكو غزوها، وقد وقع نصارى الشام - للأسف- في هذا الفخ وتعاونوا مع كتبغا ضد المسلمين، لكن - وبحمد الله- لم تصل هذه الفتنة إلى مصر[1].

لذلك يمكننا القول: إن العلاقة بين المسلمين والنصارى في مصر ظلَّت على ما يرام طوال تاريخها القديم، إلى أن جدَّ جديد على مصر كان له أعمق الأثر على هذه العلاقة؛ لذا نعدُّه البذرة الأولى للفتنة الطائفية في مصر، هذا الحدث الذي نعرفه جميعًا في تاريخنا باسم الحملة الفرنسية على مصر.

(١) انظر للمؤلف: قصة التتار.. من البداية إلى عين جالوت، مؤسسة اقرأ - مصر، ط١: ١٤٢٧هـ=٢٠٠٦م، ص١٢٣، ١٢٤.

نصارى مصر في التاريخ الحديث

منذ بدايات الغزوة الغربية الاستعمارية الحديثة للوطن العربي -قلب العالم الإسلامي- بواسطة الحملة الفرنسية على مصر في عام ١٧٩٨م، كان الإعلان عن مخطط واضح للعمل على استخدام الأقليات في مشروع الهيمنة الاستعمارية على بلادنا، وذلك عندما أعلن نابليون[١] وهو في طريقه إلى مصر عن عزمه على تجنيد عشرين ألفًا من أبناء الأقليات غير المسلمة؛ ليكُونوا مواطئ أقدام وثغرات اختراق تُعينه على بناء إمبراطوريته الاستعمارية الشرقية، إضافة إلى إصداره -أثناء حصاره لمدينة عكا الفلسطينية سنة ١٧٩٩م- نداءً إلى الأقليات

(١) نابليون بونابرت (١٧٦٩-١٨٢١م): من أشهر القادة العسكريين الأوربيين في العصر الحديث، قاد الحملة الفرنسية ضد مصر، وخاض معارك طاحنة في أوربا، ولم يُهزم في واحدة، إلا معركة واترلو، التي نُفِيَ بعدها إلى جزيرة سانت هيلينا، حيث توفي.

اليهودية في العالم كي تتحالف معه؛ لتحقيق هذا الغرض الاستعماري، مقابل أن يُساعدها على احتلال فلسطين[1].

انخدع أحد النصارى المصريين ويُدعى «يعقوب حنا» بالدعاوى الفرنسية الزائفة برغبتها في حماية النصارى، فقام ومعه ٢٠٠٠ نصراني -فيما سُمِّيَ «بالفيلق القبطي»- بمساندة قوات الحملة الفرنسية؛ مما يعدُّه التاريخ خيانة لأُمَّتِهم وطائفتهم وكنيستهم.

ولما فشلت الحملة الفرنسية وولَّتْ أدبارها في عام ١٨٠١م، كان الردُّ الإسلامي المتمثل في دولة الخلافة العثمانية على يعقوب الخائن ومجموعته ردًّا يعكس الأخلاق الإسلامية الراقية في التعامل مع غير المسلمين، حتى وإن بَغَوْا علينا، فقد صدر فرمان من الخليفة سليم الثالث «بالعفو» عن الذين استجابوا لهذه الغواية، ومحذِّرًا من الانتقام، ومن فتنة لا تُصيب الذين ظلموا

(١) محمد حسنين هيكل: المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل.. الأسطورة والإمبراطورية والدولة اليهودية، الكتاب الأول، دار الشروق - القاهرة، ط١٠: ١٩٩٦م، ص٣١، ٣٢.

خاصة، ولقد تحدَّث الجبرتي[1] عن هذا المنهاج في مداواة جراح تلك الغواية، فقال: لقد نُودي بأنَّ لا أحد يتعرَّض بالأذية لنصراني ولا يهودي؛ سواء كان قبطيًّا أو روميًّا أو شاميًّا؛ فإنهم من رعايا السلطان... وكُتبت فرمانات وأُرسلت إلى البلاد - مضمونها: الكف عن أذية النصارى واليهود وأهل الذمَّة، وعدم التعرُّض لهم، وفي ضمنها -الفرمانات- آيات قرآنية وأحاديث نبوية، والاعتذار عنهم بأن الحامل على تداخلهم مع الفرنساوية صيانة أعراضهم وأموالهم... وأخرى فيها تنويه بذكر أعيان الكتبة الأقباط، والوصية بهم[2].

ولنا هنا وقفة مع الموقف الفرنسي أو الغربي الاستعماري من المعلم يعقوب وأشباهه على مدار تاريخنا المعاصر.. لقد كانت

---

(١) الجبرتي: هو عبد الرحمن بن حسن الجبرتي، وُلِدَ في القاهرة (١١٦٧هـ=١٧٥٤م)، وهو مؤرخ مصر ومدوِّن وقائعها، وسيد رجالها في عصره، تعلَّم في الأزهر، وجعله (نابليون) حين احتلاله مصر من الديوان، وولي إفتاء الحنفية في عهد محمد علي، ومات في عام (١٢٣٧هـ=١٨٢٢م). انظر: الزركلي: الأعلام ٣/ ٣٠٤.

(٢) الجبرتي: عجائب الآثار في التراجم والأخبار، دار الجيل بيروت، ٢/ ٤٨١-٤٩٣، بتصرف

رؤية فرنسا للدور الذي سيقوم به المعلم يعقوب هذا تتعدى قدرة الرجل أو عدد جنوده، الذين لا يمثلون شيئًا مقارنة بتعداد الشعب المصري، وفي الوقت نفسه هم ليسوا بالعدد المُغري للجيش الفرنسي صاحب العتاد العسكري المتقدم، الذي لم يكن في حاجة إلى مقاتلين، لكن المسألة في حقيقتها لم تَعْدُ مجرَّد محاولة خبيثة من جانب الفرنسيين لشقِّ الصف المصري، وإحداث فتنة تُمزِّق النسيج الاجتماعي للشعب المصري، وتُشْعل النار بين أبنائه؛ مما يُسهل المهمة أمام المحتل الغازي.

انتهت الحملة الفرنسية وانكسرت موجتها، لتعود الحياة في مصر إلى طبيعتها، وتناسى المصريون فِعلة المعلم يعقوب وأتباعه، لتسود روح المودَّة والتسامح من جديد بين المسلمين والنصارى إخوة الوطن المصري الواحد، ولكن الغرب الاستعماري لم ييأس بعدُ، خاصة بعد ما تبيَّن له من قوة سلاح الفتنة الطائفية كأحد أخطر الأسلحة لتهديد النظام المصري؛ لذا فقد حاولت فرنسا وإنجلترا -على مدار سنوات تلت اندحار الحملة- الظهور بمظهر الحامي لحقوق النصارى في مصر والعالم العربي والإسلامي.

كما ساهم تردِّي الأوضاع في مصر -خاصة في عهد أبناء محمد علي- في إعطاء الفرصة للقوى الغربية وفي مقدمتها إنجلترا للتغلغل الاقتصادي والسياسي في الحياة المصرية، فزاد حجم التدخلات الخارجية، لا سيما عن طريق قناصل هذه الدول. وزاد الموقف خطورة بتولي الخديوي توفيق للحكم في مصر؛ حيث كان ضعيفًا شديد الارتباط بأوربا؛ لذا قامت في عهده الثورة العرابية في عام ١٨٨١م، وبالفعل انصاع الخديوي لمطالب الثورة بعدما خشي على مركزه في الحكم[١].

وبالطبع استكثر الغرب الاستعماري وخاصة إنجلترا على مصر أن تتسلَّم الحركة الوطنية مقاليد حكمها، فتتأثر بذلك المصالح الإنجليزية في مصر وإفريقيا؛ لذلك قرَّرت إنجلترا احتلال مصر، لكن لا بُدَّ أن يكون هناك سبب معلن تتخذه إنجلترا كذريعة تدخل بها مصر، فالمتتبِّع لتاريخ الاحتلال الأجنبي في عالمنا العربي والإسلامي يجد أن الدول الاستعمارية

(١) الموسوعة الميسرة في التاريخ الإسلامي، مؤسسة اقرأ - مصر، ط١: ١٤٢٦هـ=٢٠٠٥م، ٢/ ٢٧٧.

تبحث دائمًا عن سبب يبدو مقنعًا، ثم تتخذه ذريعة لتبرير غزوها لأي دولة، وذلك على الرغم من امتلاكها للقدرات العسكرية الهائلة، فضلاً عن الإمكانات المادية والبشرية، فهي لا تحتاج إلى أحد، وهذا ما يجعل بعض المراقبين يعجبون من إصرار المحتلِّ على تبرير دخوله العسكري، ولعلنا لا ننسى فرية أسلحة الدمار الشامل التي اتخذتها الولايات المتحدة الأميركية كذريعة مباشرة لغزو العراق في عام ٢٠٠٣م!

وبعد تفكير متعمق في هذه الظاهرة التي يمكننا أن نسميها ظاهرة «الذريعة»، ولماذا يحرص عليها الغرب الاستعماري، وجدنا أن الدولة المحتلة تلجأ إلى هذا السلوك التبريري لتحقيق ثلاثة عوامل رئيسية:

العامل الأول: لتحييد المجتمع الدولي؛ إما بهدف المساندة، أو بهدف إجبار القوى الكبرى المنافسة على التزام الصمت وعدم التدخل.

أمَّا **العامل الثاني:** هو تبرير الأموال الطائلة التي تنفقها الدول المحتلة على حملتها العسكرية، وذلك أمام شعوبها التي